

### التطبيق الرابع: الحمار الذهبي (لوكيوس أبوليوس)

يعد هذا العمل أول رواية في تاريخ الأدب العالمي، يروي قصة شاب يوناني يدعى لوكيوس يتوجه من مدينة كورنث إلى مدينة هيباتا بمقاطعة تيساليا، فيلتقي في طريقه بمسافرين، سمع من أحدهما حكاية بشعة لكنها مثيرة عن الأعمال السحرية فحركت فضوله، وعندما وصل إلى مقصده نزل ضيفا على رجل غني بخيل يدعى ميلو، والتقى في المدينة صديقة لأمه حذرته من الأعمال السحرية التي تمارسها زوجة مضيفه بامفيليا وعرضت عليه أن يقيم عندها تجنبا للمتاعب، لكنه رفض عرضها حتى لا يخرج مضيفه، كما زاد هذا التحذير من فضوله فأخذ يتقرب من خادمة بامفيليا حتى تمكنه من رؤية سيدتها وهي تمارس السحر، فوعده بتحقيق رغبته ووفت بما وعدت إذ قادتته إلى مكان خفي رأى من خلاله كيف تحولت بامفيليا إلى بومة وطارت بعد أن دهنت جسمها بمزيج، فحرص على أن يعيش التجربة ذاتها وألح على الخادمة أن تحقق مطلبه فوافقت، إلا أنها أخطأت في اختيار المرهم المناسب، وبدل أن يتحول لوكيوس إلى طائر تحول إلى حمار باستثناء عقله، فحزن لذلك، لكن الخادمة وعدته بأنها ستحضر له في الصباح باقة من الورد ليأكل منها ويستعيد شكله الإنساني، لكن الأمور لم تجري على نحو ما توقعته، فبعد أن قادتته للمبيت في الإسطبل تلك الليلة تعرض للرفس من قبل حصان وحمار مضيفه، ثم هاجم اللصوص البيت واقتادوه مع الغنيمة إلى مغارة في الجبل، تقوم على خدمتهم فيها عجوز، كما أحضر اللصوص فتاة رائعة الجمال اختطفوها ليلة عرسها لابنتها، فراحت تبكي فراحت العجوز تروي لها حكاية "آمور وبسيشة" أو الحب والنفس لتهدئتها، وعندما عزم على الفرار امتطته الفتاة ففر بها، إلا أن اللصوص تمكنوا من اللحاق بهما، ولولا قدوم شاب إلى المغارة ادعى أن له تجارب في اللصوصية لكانت عاقبتهم وخيمتهما، إذ تمكن من جعلهم ينصبونهم رئيسا عليهم، ولم يكن في الحقيقة سوى خطيب الفتاة الذي تمكن من إسكار اللصوص وتقييدهم ثم الفرار بخفيته على ظهر الحمار.

بعد النجاة طلبت الفتاة من والدها العناية به فأمر رئيس الإسطبل أن يرسله إلى المرعى مع الخيل، لكنه ما إن وصل حتى استخدم في إدارة الرحى وفرض عليه حمل الحطب من الجبل إلى السهل فتعرض لسوء المعاملة من الغلام الذي يسوقه، وبعد وفاة الفتاه سرقه رئيس الإسطبل وفر به، وبعد مغامرات أخرى وقع في يد مجموعة من رهبان الإلهة السورية إيزيس فكان عليه حمل تماثيلها أثناء تنقلهم،

كما ناله منهم عذاب شديد ولم يسلم منهم إلا بعد أن اتهموا بالسرقة وسجنوا ، فاشتره طحان ثم انتقلت ملكيته إلى بستاني فعانى من الجوع والبرد، ومنه انتقلت ملكيته إلى جندي ثم أخوين طاهيين، بدأت مرحلة رائعة بالنسبة إليه إذ كان يأكل بشكل كاف من بقايا الأطعمة وبعد أن اكتشف سره قدماه إلى سيدهما فأبدى إعجابا به واشتره منهما وقدمه لعتيق له للعناية به فعلمه ألعابا مختلفة ثم أخذ يؤجره لمن يرغب في خدماته، كما قدمه في عمل مخز على المسرح، لكنه تمكن من الفرار ولما أخذ التعب منه نام وحين استيقظ وجد نفسه على الشاطئ ورأى البدر في كبد السماء، فعرف أن وقت الخلاص قد اقترب، فأغطس رأسه في البحر سبع مرات وتضرع بخشوع إلى ملكة السماء أن تحرره من هيئة الحيوان، وعندما عاوده النوم رأى الإلهة إيزيس في حلمه فأخبرته بأنها قد استجابت لدعائه، فما إن وصل الموكب العظيم لتمجيدها رأى الكاهن وهو يحمل إكليلا من الورد فأسرع إليه وأكل من أوراقه فاستعاد هيأته، فتحدث الكاهن عن قدرة الإلهة على إحداث هذه المعجزة التي اندهش لها الناس وأمر لوكيوس بتكريس حياته لعبادتها فانضم إلى الموكب المتوجه إلى البحر لتدشين سفينة ثم عاد معه إلى معبد الإلهة وظل وفيها لعبادتها إلى أن تم له الاطلاع على أسرارها، وبعد سنة اطلع على أسرار أوزوريس ونال الدرجة الثالثة من القدسية وصار كاهنا في الرهينة.

لهذه الرواية مصدر يوناني استمد منه لوكيوس مضمونها إذ من بين أعمال لقيانوس السميساطي (القرن الثاني ميلادي) كتاب يحمل عنوان لوكيوس والحمار، يتضمن القصة ذاتها لكنه يختلف في التفاصيل وطريقة سير الأحداث إضافة إلى النهاية، إذ يتباطأ سير الحدث في رواية أبوليوس بسبب القصص المتناثرة كما أن نهاية الأحداث عنده تأخذ منحى صوفي تمجد عبادة إيزيس.

يرى أبو العيد دودو أن رواية الحمارة الذهبية تنتمي إلى أنموذج قصص المغامرات، فالتغير الساخر من إنسان إلى حمار قد تكون له صلة بتغيير الجنس الأدبي من الملحمة الشعرية إلى الملحمة النثرية، وعلى هذا فهي ليست رواية هجائية بآتم معنى الكلمة إذ تجمع بين السخرية والاستعراضية والفكاهة الهزلية الماحنة والهزاء اللاذع إضافة إلى مراعاة الحالات الوجدانية المتصلة بالمواقف المختلفة.

قد لا تعني نهاية الرواية قبل الكتاب الحادي عشر أن المؤلف أراد أن يضع عالم السمو والرفعة مقابل عالم التفاهة الذي تجلى في الكتب العشرة السابقة، لقد أصبح من حق البطل أن ينعم بالراحة ويتخلص من آلامه ومغامراته المختلفة، وعبادة الإلهة إيزيس قد تكون بمثابة معادل لاهتمامه بالسحر

الأسود في الكتاب الأول، بحيث يمكن أن توضع القداسة المكتسبة في النهاية في مقابل الخطيئة المرتكبة في البداية، قاده فضوله وسوء حظه إلى مصيره قبل أن يبلغ شاطئ الأمان بفضل ما أحدثته الديانات الشرقية المنتشرة في عصره.

خصت الرواية بعناية أدباء عصر النهضة، حيث ابتداءً طبعها منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وكان تأثيرها قد امتد قبل ذلك إلى أكثر من قرن، إذ نتج عنها طريقتين أحدهما روايات المغامرات مثل رواية دون كيخوته عند ميغيل سرفنثيس، وهانس ياكوب غريميلسهاوزن في رواية سيبلتيسموس المغامر، ولويس كوبيروس في رواية الحمار العاشق، وغيرها من الروايات الحديثة، أما الطريق الثاني فيقودنا إلى نوع من القصص الذي يقوم على أحداث غريبة تتمثل في الغدر والخيانة الزوجية والفضول والحب، وختاماً يمكن القول أن "خرافة الحب والنفس" أو "أمور وبسيشة" تعد أجمل قصة في رواية الحمار الذهبي وأروع قصة في الآداب القديمة على الإطلاق، وهي الوحيدة التي تعود إلى العصور اليونانية واللاتينية (المصدر: أبو العيد دودو - مقدمة الترجمة).

### التطبيق الخامس: رواية الأم لماكسيم غوركي

يمثل ماكسيم غوركي (1868-1936) أحد أعمدة الواقعية الاشتراكية، وتمثل رواية الأم نموذجاً عن الأدب الملتزم، فرغ من تأليفها سنة 1906م فكانت علامة تحوله من الواقعية الطبيعية، وفي السنة ذاتها سافر إلى أمريكا لجمع التبرعات للثورة ثم عاش فترة في جزيرة كابري وأنشأ مدرسة ثورية كان ستالين أحد تلامذتها وحين انفجرت ثورة 1917م تردد في بادئ الأمر ثم أعلن تأييده للبلاشفة، وفي سنة 1921م ارتحل عن روسيا إثر خلاف مع لينين وعاش في ألمانيا حتى استدعي إلى بلاده سنة 1928م.

نشر عدة مجموعات قصصية أهمها: ستة وعشرون رجلاً وفتاة سنة 1936م، مولد إنسان سنة 1912م.

تروي رواية الأم قصة العامل الثوري بافل الذي يعيش مع والدته المسنة ويشارك في النشاط الثوري لجماعة من الاشتراكيين تعمل في أحد المعامل، يلقي عليه القبض وينفى إلى سيبيريا بتهمة الدعوة إلى الإضراب وقيادة موكب أول أيار، وهنا يحدث الانقلاب العظيم في شخصية الأم وتحل محل ابنها في

الحلقة الثورية فتتولى تهريب المنشورات الاشتراكية إلى داخل المعمل، وقد اقتنعت أن القيام بهذا الأمر يضل الشرطة ويصرفهم عن إثبات تهمة العمل السري عن ابنها (بمعنى أنها تصرفت في البداية بدافع عاطفي/ الأمومة)، لكنها انخرطت تدريجيا في العمل الثوري عن قناعة بضرورة النضال، وأصبحت مهمتها تزويد الناس بالنداءات الثورية، فانتقلت من دائرة التأثر العاطفي إلى مرحلة الوعي الثوري، إذ أصبحت تنتكر في ثياب راهبة أو بئعة خردوات أو بورجوازية ميسورة الحال لتجوب في المقاطعة حاملة صندوقا، تتوجه بالكلمة إلى الغرباء وتجلب إليها الانتباه، ورغم إلقاء الشرطة القبض عليها تبقى مصرة على تحديهم بشجاعة إلى أن تلقى حتفها تحت التعذيب:

- لن يغرقوا الحقيقة، ولا في محيط من الدماء

لطموها على رأسها...

- إنكم لا تتيرون إلا أسعار نار حقدنا عليكم، أيها المجانين وذلك سوف يسقط على رؤوسكم يوما ما.

قدّر لينين روح الحزب والشخصية الأيديولوجية والمهارة الفنية في رواية الأم، وقد وصف غوركي بأنه أكبر ممثل للفن للبروليتاري، فرواية الأم تبدو تطبيقا منهجيا للواقعية الاشتراكية، هدفها الأساسي خلق نموذج فني جديد للشخصية البروليتارية الإيجابية، فانخراط أم بسيطة مسنة في العمل الثوري فكرة غير عادية في ذلك الحين، وكان خطر الجنوح إلى المثالية في الطرح بعيدا عن الواقع أو بصورة حاملة مسألة حاضرة في وعي ماكسيم غوركي، حاول التغلب عليها من خلال:

1- التأكيد على ان تصرف الأم الثوري هو تصرف استثنائي، إذ يصفها أحد أبطال الرواية بالقول: "ربما كانت الام الأولى التي اتبعت طريق ابنها، أما غيرها من الآباء والأمهات فكانوا يحجمون عن تأييد الثوريين والالتحاق بهم على الرغم من أنهم قد يضمرون عطفًا عليهم أو إعجابا بهم".

2- الحرص على خلق العوامل المساعدة على تطور موقف الأم، والانتقال من مجرد التعاطف العفوي مع الثوار وفاء لذكرى ابنها وأملا في إنقاذه إلى مرتبة الوعي الثوري القائم على التحدي.

استطاع غوركي أن يخلق من هذه الشخصية الاستثنائية نموذجاً عميقاً لفتح وجدان الإنسان الروسي على الثورة، وأظهر بشكل ملموس كيف استطاعت الحركة العمالية الثورية أن تهمز الإنسان وتفتح طاقاته وتعطي معنى جديداً لحياته ودافعا قويا للتحدي والنضال.

(المصدر: حسام الخطيب: محاضرات في تطور الأدب الأوروبي ونشأة مذاهبه واتجاهاته النقدية.)